

العقيدة - العقيدة من مفهوم القرآن والسنة - الدرس (05-40) : توحيد الألوهية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-06-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

ماذا يقتضي الإيمان بالله؟ :

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الخامس من دروس العقيدة، وقد كان موضوع الدرس السابق : كيف نؤمن بالله رب العالمين؟ كيف نؤمن بأن الله خالق السموات والأرض؟ كيف نؤمن بأن الله جل جلاله ممد السموات والأرض؟ هو الذي يعطي، هو الذي يمنع، هو الذي يرفع، هو الذي يخفض، هو صاحب الأسماء الحسنى، صاحب الصفات الفضلى.

الحديث عن وجود الله، وعن كماله، وعن وحدانيته، وعن ربوبيته، وعن أفعاله، مقتضى الإيمان برب العالمين، ولكن هذا الإيمان بأن الله خالقنا ومربينا ومسيرنا، وأنه إليه المصير، وأنه خلقنا إلى جنة عرضها السموات والأرض، وأن الأمر كله بيده، وأنه لا معطي إلا هو، ولا مانع، ولا رافع ، ولا خافض، ولا معز، ولا مذل إلا هو سبحانه، هذا الإيمان ماذا يقتضي؟.

هنا موضوع هذا الدرس، يقتضي أن نعبد، أن نتوجه إليه، أن نفرده بالعبادة ، ألا نعبد إلا إياه، إياك نعبد وإياك نستعين، لذلك أن نعبد الله عز وجل وحده ، أي أن نفرده بجميع أنواع العبادات الظاهرة والباطنة، بل ينبغي أن نعتقد يقيناً : أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وهذا معنى لا إله إلا الله ، لا معبود بحق إلا الله دائماً، هناك حقيقة



لكن ما موقفك منها؟ ماذا فعلت من أجلها؟:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

[سورة فصلت الآية: 6]

يقتضي إيمانك بالله خالقاً ، ومربياً، ومسيراً، وواحداً في وجوده، واحداً في صفاته، واحداً في أسمائه، يقتضي إيمانك بكماله أن تعبد، أن تتوجه إليه، أن تفرد بالعبادة، أن تتوكل عليه، أن تستعين به، أن ترجوه، أن تسأله، أن تستغفره ، لذلك من مقتضيات الإيمان بالله رب العالمين : أن تفرد بكل أنواع العبادات الظاهرة والباطنة، وأن الله وحده هو المستحق للعبادة. أيها الأخوة الكرام، كلمة لا إله إلا الله تقتضي أن تعبد، وأن تؤمن بربوبيته، لا معنى أن تعبد دون أن تؤمن به، لكن إذا آمنت بربوبيته لا يعني أنك تعبد، إن آمنت بألوهيته أنه المستحق وحده للعبادة، هذا يقتضي أنك آمنت بربوبيته، أما العكس فغير صحيح.

لم خلق الله الخلق وأرسل الرسل؟ :

أيها الأخوة الكرام، من أجل هذا التوحيد في العبادة، خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وإلى كافرين، إلى سعادة في الجنة عرضها السموات والأرض، وإلى أشقياء في نار لا ينتهي عذابها، وعلّة خلقنا أن نعبد، لكن كلمة نعبد، قد يفهم الواحد منا: أنه ينبغي أن نطيعه، هذا صحيح، ينبغي أن نطيعه، ولكن الطاعة ليست هدفاً، إنما هي وسيلة للسعادة في الدنيا والآخرة، خلقنا لنسعد به، فأمرنا أن نعبد، وملخص الدين كله : تعرفه، فتعبد، فتسعد بعبادته في الدنيا والآخرة، لذلك العبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

ما فحوى هذه الآية؟ :

أيها الأخوة الكرام، تكاد تكون هذه الآية ضغطاً للدين كله، قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء الآية: 25]

جميع الرسائل التي نزلت من السماء فحواها هو وحده المستحق للعبادة، لا معبود بحق إلا الله، ينبغي أن نعبد، في أكثر آيات القرآن آية متكررة على لسان كل الأنبياء:

(فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

[سورة الأعراف الآية: 59]

أقدم لكم أيها الأخوة الكرام: ضرورة توحيده في العبادة، وتوحيده في الربوبية، قال تعالى:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة النمل الآية: 59-64]



ليس بينك وبين ربك حجاب

يقتضي إيمانك بالله رب العالمين : أن تفرده بالعبادة.

أيها الأخوة الكرام : معنى أن تفرده بالعبادة : أن تعتقد اعتقاداً جازماً، أنه ليس هناك شركاء له، ولا شفعاء، ولا وسطاء، ومن حق كل إنسان أن يهرع إلى ربه عز وجل، وأن ينكر من أقام نفسه وسيطاً بين الله وبين عباده، ليس بينك وبين ربك حجاب، أي مخلوق بإمكانه أن يعقد اتصالاً مع الله عز وجل، بإمكانه أن

يدعوه، بإمكانه أن يستغفره، بإمكانه أن يتوب إليه، بإمكانه أن يتصل به.

هذا الذي قلته بهذه الدقائق، ينشعب إلى شعبتين، ينبغي أن تعرفه، وأن تتأكد من معرفتك له، ثم ينبغي أن تتوجه إليه، أليس في الإيمان تصديق وإقبال؟ أليس في الكفر تكذيب وإعراض؟ ينبغي أن تعرفه، وينبغي أن تتوجه إليه، فالمعرفة من مقتضياتها أن تتوجه إليه، وأي معرفة ليس معها توجه لا قيمة لها، ذلك لأن العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته.

كما قلت في درس سابق، بل وفي دروس سابقة : إن إبليس أقرّ بربوبيته، وأقر بعزته ، وأقر بأنه خالق الأكوان، وأقر باليوم الآخر، ولكن هذه المعرفة التي لا ينبثق منها توجه إلى الله، وعبادة له، وإخلاص له، لا قيمة لها إطلاقاً، طبعاً هذه الحالة، حالة مرضية شائعة جداً.

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: 84-85]

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: 86-87]

(قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: 88-89]

أن تعتقد أن الله خالق الأكوان، وأن الأمر بيده، وأن صفاته عليا، وأن أسماءه حسنى ، دون أن تتوجه إليه، لا قيمة لهذا الاعتقاد إطلاقاً، لأن العلم ما عمل به، فإن لم يعمل به كان الجهل أولى.

أيها الأخوة الكرام، شهد الله أن الإنسان إذا آمن حق الإيمان ، حلت كل مشكلاته، تصبح علاقته بجهة واحدة، من جعل الهموم همأ واحداً ، كفاه الله الهموم كلها، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتنى وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء.

تقتضي العبودية لله عز وجل ، أن توقن أنه لا خالق لهذا العالم إلا الله، بيده الرزق، بيده الخير، بيده الشر، يحيي ويميت، مالك كل شيء، المعز والمذل، المعطي، الممسك، الصمد ، الذي يلجأ إليه في النزالات، المدبر، المصرف للمقادير في هذا الكون، هذا معنى أن تعبد، ينبغي أن يسبق عبادتك له، أن تؤمن بكل صفاته، وبكل أسمائه، وبكل أفعاله، وأن توحد.

أيها الأخوة الكرام، الآن الحقيقة: أن العبادة
علة وجودنا، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات الآية: 56]

أنت حينما تذهب إلى بلد من أجل أن تنال
شهادة عليا، وأن كل آمالك معقودة على هذه
الشهادة، بهذه الشهادة تعين بهذا المنصب،
بهذا المنصب لك دخل بهذا الدخل، تتزوج،
بهذا الزواج تشتري بيتا، كل آمالك بالدنيا



الهدف نيل الشهادة

متعلقة بنيل هذه الشهادة، فإذا ذهبت إلى بلد لنيل هذه الشهادة ، ماذا ينبغي أن تفعل؟ أدق أدق
جزئيات حركتك في هذا البلد مرتبطة بهذا الهدف الكبير، وهكذا المؤمن في الدنيا، أدق حركاته وسكناته
مرتبط بعلة وجوده، علة وجودنا أن نعبد.

قف عند هذا الكلام :



العبادة قمة الحب

الكلمات الكبيرة أحيانا التي وردت في القرآن
وفي السنة ، لكثرة تداولها من دون فهم
عميق، لا تأخذ المعنى الذي أراده الله عز
وجل، مثلا : يظن الإنسان أن العبادة هي
الصوم والصلاة والحج والزكاة، لا، العبادة
أن تعرفه أولاً، ثم أن تطيعه في كل ما أمر،
وذكرت هذا في درس سابق، الطاعة أداء
الفرائض، أداء الواجبات، الأمر بالمعروف،
النهي عن المنكر، الدعوة إلى الله، هكذا

يقتضي الإيمان، فلذلك لا يمكن أن نفهم العبادة فهماً ضيقاً، ينبغي أن نفهمها فهماً واسعاً، أن تعرفه أولاً، وأن تطيعه ثانياً، وأن تكون المحبة مع هذه الطاعة، ثم أن تسعد بقربه ثالثاً. السعادة هي الثمرة، السعادة ثمرة جمالية، والمعرفة سبب، والطاعة أصل، الأصل أن تطيعه، لا طاعة إلا إذا عرفته، والثمرة إن أطعته، أنت في قمة السعادة، السلامة والسعادة مطلبان ثابتان لكل مخلوق على وجه الأرض، لا يوجد إنسان يتمنى ألا يسلم، ما من واحد من بني البشر إلا ويتمنى أن يسلم، وأن يسعد. لذلك قالوا: العبادة غاية الحب، أعلى درجات الحب العبادة، غاية القرب العبادة، غاية الخضوع العبادة.

من تعريفات العبادة :

هناك تعريفات للعبادة متنوعة، أنا ذكرت تعريفاً ، يعد تعريفاً جامعاً شاملاً : طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، لكن بعضهم عرف العبادة فقال: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. عالم آخر يقول: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر على ألسنة الرسل. أيها الأخوة الكرام، العبادة في القلب، وفي اللسان، وعلى الجوارح، ما وقر في القلب ، وأقر به اللسان، وصدقه العمل. الآن: ما من حركة على وجه الأرض إلا وتتنقل بين الأحكام الشرعية التالية : بين واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، ما من شيء تفعله منذ أن تستيقظ ، حتى تؤوي إلى فراشك، إلا وهذه الأعمال ما بين واجب، فرض، وبين مستحب، وبين مباح، وبين مكروه ، وبين حرام، عندنا واجبات ، مستحبات، مباحات، مكروهات، محرمات، في القلب، وعلى اللسان، وفي الجوارح، كم حالة؟ خمس عشرة.

وبعضهم قال: العبادة طاعته بفعل المأمور وترك المحذور. وهذه حقيقة الدين، فعل المأمور، وترك المحذور، من هو الولي؟ ليس الولي الذي يطير في الهواء، ولا الذي يمشي على وجه الماء، ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام، أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك:

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

[سورة النحل الآية: 36]

من لوازم عبادة الله اجتناب الطاغوت،
عندك في الحياة الدنيا خاصة اسمها
الإثنيونية، يعني إيمان يقابله كفر، توحيد
يقابله الشرك، طاعة تقابلها معصية، هناك
إنسان رباني، وإنسان شيطاني، إنسان خير،
وإنسان شرير، إنسان مست قيم، وإنسان
منحرف، هذه إثنونية.



يجب أن نعلم إن لم تكن على الخط الأول، فأنت على الثاني قطعاً، قال تعالى:
(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص الآية: 50]

لا يوجد حالة ثالثة، فذلك أكثر الآيات التي تأمر بالعبادة تنهى عن الشرك:
(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ)

[سورة النساء الآية: 36]

ما الطاغوت؟ :

من لوازم العبادة : اجتناب الطاغوت، الطاغوت الشيطان، الطاغوت أي إنسان يدعوك إلى معصية ،
يدعوك إلى التقلت، يدعوك إلى استباحة الحرام، يدعوك إلى فعل المنكرات، لا يكفي أن تطيع الله، لو
أنك جمعت بين طاعة الله وبين طاعة الشيطان لا تفلح إطلاقاً، أن تعبد وأن تجتنب
يا معاذ، ما حق الله على عباده؟ قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً:
(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا
وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف الآية: 110]



الخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى خلق خلق الخلق ليكرمهم بعبادته، وليرفعهم إلى أعلى المستويات، لامثالهم لأوامره، واجتنابهم لنواهيهم، فكانت العبودية أعظم نسب ومقام في الأرض.

مثلاً: الآن في التعليم : هذا يحمل وثيقة إتمام مرحلة، هذه أقل شهادة، شهادة إعدادية، وهناك ثانوية علمية، وأدبية، العلمية أقوى، هناك

اختصاص ليسانس، أو بكالوريوس، دبلوم عام، ودبلوم خاص، بعد هذا ماجستير، وبعد هذا دكتوراه، دكتوراه دولة، وماذا بعد هذا؟ جائزة نوبل، في بعض البلاد شهادة متميزة جداً، إن كان في بعض البلاد بورد، وفي بلاد إف أس، وفي بلاد أ ر ج، هذه الشهادات العليا، نحن في تسلسل العبودية ، تسلسل مراتب الإنسان، أعلى مقام في الذروة، لا يرقى إلى هذا المقام، مقام أن تكون عبداً لله.

إليك هذه الأدلة من الكتاب على أن أعلى مقام عند الله أن تكون عبداً له :

الدليل:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

[سورة الإسراء الآية: 1]

هذا سيد الخلق، وحبیب الحق، سيد ولد آدم، الذي أقسم الله بعمره، فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر الآية: 72]

ناداه الله بأنه عبده:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

[سورة الإسراء الآية: 1]

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

[سورة الجن الآية: 19]

(فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ)

[سورة النجم الآية: 10]

وهو في سدره المنتهى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا)

[سورة البقرة الآية: 23]

إذاً: العبودية لله أعلى مقام، كيف أن الآن في التاريخ الحديث ، هناك قطب واحد؟ وكيف يكون أعلى منصب في الأرض من يتربع على رئاسة هذه الدولة العظمى؟ هذا أعلى منصب في العالم، للتقريب : أعلى مقام يناله إنسان أن يكون عبداً لله.

إليكم الدليل من السنة على أن أعلى مقام عند الله أن تكون عبداً له:

أيها الأخوة الكرام، كلما ازددت عبودية له رفعتك إلى أعلى عليين، وكلما قلت : سلطت الأضواء على شخصك، هوت بك هذه الرغبة إلى أسفل سافلين، لذلك حينما خير سيدنا جبريل نبينا عليه الصلاة والسلام أن يكون ملكاً أو يكون عبداً، فقال: بل أكون عبداً لله .

أخرج ابن حبان في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

((جلس جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر على السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل:

هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل ساعة، فلما نزل، قال: يا محمد! أرسلني إليك ربك؛ أملكاً أجعلك أم

عبداً رسولاً؟ فقال له جبريل: تواضع لربك يا محمد، فقال عليه الصلاة والسلام: لا بل عبداً ورسولاً))

أنت في أعلى مقام حينما تكون عبداً لله.

متى يرفع الله شأن الإنسان؟ :

أيها الأخوة الكرام ، ما من إنسان يخضع لله ، يمرغ جبهته في أعتابه ، يسأله، يتذلل إليه ، ينكسر على بابه، إلا أعزه الله، ورفع شأنه، يقول الملك الظاهر بيبرس: ما استقر ملكي حتى مات العز بن عبد السلام، عالم جليل، بقدر عبوديتك لله يرفعك الله، وبقدر أن تقول أنا، وأنا فعلت، وأنا تركت، وأن تنسى الله عز وجل، وأن تشهد عمالك الكبير فيما تتوهم، فأنت في طريق الهلاك.

يا محمد، ماذا تريد أن تكون: نبياً عبداً أم نبياً ملكاً؟ قال:

((بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره))

ما من مؤمن ليس له صلة بالله، أحياناً يناجي ربه، أحياناً يتذلل إليه، أحياناً يعلن توبته له، هذه المناجاة، هذا الخضوع، هذا التذلل، هذا قمة العبودية لله عز وجل، هذا الذي وقف في وجه التتار، سجد لله، هو

نور الدين الشهيد، قال: يا رب، من هو الكلب نور الدين حتى تنصره؟ انصر دينك، يا رب أنا لا شيء، أنا كذا، انصر دينك.
بقدر ما تتذلل له فيما بينك وبينه يرفع شأنك، ويعلي قدرك، ويعزك، ويقهر أعدائك، وبقدر ما تقول أنا يخذلك.

قف هنا :

قال المتنبي يمدح نفسه:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شوارده ويسهر الخلق جراها ويختصم
وجاهل مده في جهله ضحك حتى أتته يد صرافة وصم
كان يمشي بين حلب وبصرى، خرج عليه أعداؤه فولى هارباً، هذا الذي نظر الأعمى إلى أدبه، هذا الذي قال:

الخيال والليل والبيداء تعرفني والسيف والقرطاس والقلم

قال له غلامه: ألم تقل هذه الأبيات؟ قال له: قتلتني قتلك الله، وعاد فقتل، إذا قلت الله: تولاك، وإذا قلت: أنا، تخلى عنك.
أكاد أقول لكم: هذه تجربتان؛ تجربة بدر، وتجربة حنين، والصحابة هم هم، في بدر افتقروا إلى الله فنصرهم، وفي حنين قالوا: لن نغلب من قلة فتخلى الله عنهم.

من المهلكات :

ملخص الملخص: إذا قلت: أنا، تخلى الله عنك، تقول: أنا ابن فلان، أنا أحمل دكتوراه، تخلى الله عنك، أنا عندي خبرات متراكمة، ماذا قال فرعون؟:

(أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِصْرَ)

[سورة الزخرف الآية: 51]

أهلكه الله، ماذا قال قارون؟:

(إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي)

[سورة القصص الآية: 78]

أهلك الله عز وجل قوم بلقيس:

(نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

[سورة النمل الآية: 33]

تخلى الله عنهم، قال الشيطان:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

[سورة الأعراف الآية: 12]

أهلكه الله عز وجل، أربع كلمات مهلكات : أنا، ونحن، ولي، وعندى، فذلك حينما يتذلل الإنسان لله عز وجل، ويخضع له، ويتوب إليه، وينكسر على أعتابه، ويلزم طاعته ، يعزه الله عز وجل . أيها الأخوة، إذا أعزك الله، سخر لك أعداءك الألداء لخدمتك، وإذا أذل الله عبداً ، يضربه أقرب الناس إليه.

من أدعية النبي :

أيها الأخوة، هذا دعاء من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام ، أخرج الإمام أحمد بسند صحيح ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَصْرَبَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَهُ بِهِ نَفْسِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَدَهَابَ هَمِّي، إِنْ أَدَّهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حَزْنِهِ فَرَجًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: أَجَلٌ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والبخاري في مسنده، والإمام أحمد في مسنده]

هذا الدعاء في منتهى العبودية لله عز وجل.

ما الفرق بين العباد والعبيد؟ :

الحديث القدسي الدقيق جداً الصحيح ، الذي ورد في صحيح مسلم ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا.

-ليس هناك تشريف للإنسان أعلى من أن تنسب إلى ذات الله، يا عبادي، لذلك فرق كبير بين العباد والعبيد، العبيد جمع عبد القهر، بينما العباد جمع عبد الشكر، وكل إنسان مقهور من قبل الله عز وجل، مقهور بضربات قلبه، مقهور بسيولة دمه، مقهور بحركته، الإنسان فجأة يفقد حركته، أحياناً يفقد ذاكرته، أحياناً يفقد حركة قلبه، يقال: سكتة قلبية، فكل إنسان مقهور، ولو كان ملحدًا، فهذا العبد المقهور جمعه عبيد:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

[سورة فصلت الآية: 46]

أما هذا العبد الذي تعرف إلى الله، وأقبل عليه، فهذا العبد جمعه عباد:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

[سورة الزمر الآية: 53]

بماذا ألزم الله نفسه في هذا الحديث؟ :

إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا.
-الإله العظيم، خالق الأكوان، من بيده كل شيء، ومن لا يستطيع أحد أن يسأله، لا يسأل عما يفعل -
إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا.
-والشيء بالشيء يذكر ، يقول مستشار دولة عظمى، هي قطب العالم: من يستطيع أن يلزمنا بتنفيذ عهودنا؟

الإله العظيم ألزم نفسه بالاستقامة:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآية: 56]

الإله العظيم ألزم نفسه بالاستقامة، وإنسان قوي عنده طائرات، عنده سلاح نووي، قال : من يستطيع أن يلزمنا بتنفيذ عهودنا.

فحينما الإنسان يسقط في الوحول، وينتهي على مزابيل التاريخ، وحينما يرقى يدخل التاريخ.

إلى ماذا يفتقر الإنسان؟ :

قَالَ-: يَا عِبَادِيَ، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِيَ، كَلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُمْ فَأَسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

-يعني نحن مفتقرون إلى هداية الله عز وجل.

أخواننا الكرام ، حقيقة دقيقة جداً : عين الإنسان هذه ، إذا فحصها في درجات الرؤية، يعطونه حروفاً إلى أي جهة، آخر سطر، إذا عرف الصواب ، يأخذ 10/12 أعلى درجة، فإذا كان الإنسان يتمتع ببصر حاد، بأعلى مستوى، ولم يكن ثمة نور ، ما قيمة هذا البصر؟ صفر، ضع في غرفة مظلمة ظلاماً دامساً أعمى وبصيراً ألا يستويان؟ معنى ذلك: أنه لا قيمة لهذه العين



لا قيمة للعين من دون نور

من دون نور ، يتوسط بينها وبين الأشياء، بالمقابل : لا قيمة لهذا العقل إطلاقاً إن لم يكن هناك وحي يهتدي إليه.

مشكلة العالم الغربي يشقى ويشقى ، يقول لك ببعض البلاد : قريباََ الثلاثين مليون مصاب بالإيدز،

وسلسلة الشقاء تتفاقم، شقاء ما بعده شقاء،

الإنسان استخدم عقله بعيداً عن وحي

السماء، فذلك:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَفُتِنَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قَاتَلَ

كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ)

[سورة المدثر الآية: 18-22]

فلو استخدم الإنسان عقله من دون وحي

السماء، لشقى وأشقى من حوله

قال:- يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى

نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ .

-نحن جميعاً مفتقرون إلى وحي السماء.-

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطَعْتُهُ فَاسْتَطِعْ مُنِي أَطْعَمُكُمْ.

-إذا لم تنزل أمطار لا ينبت نبات، ويهوت الحيوان، ويموت الإنسان، بلاد فيها مجاعات بسبب الجفاف،

وإذا نزلت الأمطار غزيرة كما أكرمنا الله بها في هذا الموسم، ترى الأرض كأنها مزدهرة.-

هذا الحديث جامع مانع للعبودية لله :

يَا عِبَادِي، كُتُّكُمْ عَارَ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا
أَعْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَعْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا
نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجِنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ
مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجِنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ
قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجِنَّتُمْ، قَامُوا
فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ
إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ
اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

هذا الحديث جامع مانع للعبودية لله، نحن مفتقرون إلى هدايته، وإلى رزقه، وإلى إكسائه، وإلى طاعته، وهو لا يظلم، وغني عنا إذا أمانا، وغني عنا إذا كفرنا.

من ألوان الشرك :

1- ألا تعتقد أن الله فعال في الأرض :

أيها الأخوة الكرام، الشرك ألوان، أحد أنواع الشرك: ألا تعتقد أن الله فعال في الأرض ، مع أن الله عز وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف الآية: 84]

2- أن تجعل لله أندادا، أن تحبهم كحب الله تعالى :

من الشرك: أن تجعل لله أندادا، أن تحبهم كحب الله تعالى، قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)

[سورة البقرة الآية: 165]

3- أن تطلب العزة مما سوى الله :

من ألوان الشرك: أن تطلب العزة مما سوى الله:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

[سورة مريم الآية: 81-82]

بتاريخنا المعاصر: كم جهة اعتمدت على جهة مما سوى الله اعتماداً كبيراً، ثم طعننها بالظهر، التاريخ بين أيديكم:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

[سورة مريم الآية: 81-82]

4- أن تستنصر بغير الله :

من ألوان الشرك: أن تستنصر بغير الله:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَّا يَسْتَنصِرُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ)

[سورة يس الآية: 74-75]

5- أن يفرح الإنسان، وأن يستبشر إذا ذكر الشركاء لله عز وجل

من ألوان الشرك: أن يفرح الإنسان، وأن يستبشر إذا ذكر الشركاء لله عز وجل.

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ

يَسْتَبْشِرُونَ)

[سورة الزمر الآية: 45]

الآن: قدم تفسيراً أرضياً للأحداث يستبشر الناس، قدم تفسيراً توحيدياً ، يعود بلائمة على المسلم، يتألم المسلم.

6- إذا ذكرت الله وحده نفر الناس :

من ألوان الشرك: أنك إذا ذكرت الله وحده نفر الناس، وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده:

(وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)

[سورة الإسراء الآية: 46]

7- أن تحلل ما حرم الله، وأن تحرم ما أحل الله :

من ألوان الشرك: أن تحلل ما حرم الله، وأن تحرم ما أحل الله، أي أن تكون أنت المحلل والمحرم: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذُرًّا مِنَ الْحَرِّثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الأنعام الآية: 136]

هو يحلل ويحرم، أن تتخذ أنداداً تحبهم كحب الله، أن تطلب العزة مما سوى الله، أن تطلب النصر مما سوى الله، أن تستبشر إذا ذكر الشركاء لله عز وجل، ألا تستبشر، بل تشمئز إذا ذكر الله وحده، وأن تحلل وتحرم، هذا كله من ألوان الشرك بالله عز وجل.

ما هي الأسباب الكبيرة التي تحمل على الشرك وهو نقيض التوحيد؟ :

1- أن تعجب بعقلك، أو أن تتبع رأياً لا علاقة له بالوحي، أو أن تتبع هواك :

أيها الأخوة الكرام ، ما هي الأسباب الكبيرة التي تحمل على الشرك وهو نقيض التوحيد؟
أولاً: أن تعجب بعقلك، أو أن تتبع رأياً لا علاقة له بالوحي، أو أن تتبع هواك ، هذه آفات ثلاث، أن تعجب بعقلك، وأن تعد العقل مرجعاً لكل شيء:

(إِنَّهُ فُكِّرَ وَقَدَّرَ * فُقْتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[سورة المدثر الآية: 18-19]

أن يحجب العقل عن وحي السماء، هو شيء كبير جداً، لكن لا قيمة للعين من دون ضوء، كما أنه لا قيمة للعقل من دون وحي، الضوء للعين كالوحي للعقل، فعقل بلا وحي ضال مضل، والعالم يتخبط في صراعات، وفي حروب، وفي تدمير، وفي شقاء، وفي رذيلة، وفي إباحية، لماذا؟ لأن ال عقل البشري استقل عن وحي السماء.

أكاد أقول لكم: إن ما تعانيه البشرية من مشكلات ، بسبب عقل بلا وحي، وكل ما جاء به الإسلام من تقدم ومن خير ، هو عقل يهتدي بالوحي، أنت كمسلم لك عقل يهتدي بالوحي، والكافر عقل بلا وحي، لذلك المؤمن الله عز وجل يكرمه بالحكمة:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

[سورة البقرة الآية: 269]

والكافر أكبر عقاب له أن الله يتخلى عنه، فإذا هو يرتكب حماقات ما بعدها من حماقات، فحينما تعتقد أن عقلك هو كل شيء، وأنه وحده يعطيك الحل لكل مشكلة، وتستغني عن وحي السماء، فهذا أحد أكبر أسباب الشرك، فحينما تقبل رأياً يتناقض مع وحي السماء، أيضاً هذا أحد أكبر أسباب الشرك، وحينما تحكم الهوى والمصلحة توقع بالشرك، فالآراء والعقول والأهواء، هي سبب الشرك الذي هو المهلك:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

[سورة النساء الآية: 48]

2- اتباع الشهوات، والخضوع للغرائز :

عندنا سبب آخر للوقوع بالشرك هو: اتباع الشهوات، والخضوع للغرائز، إما إنسان عنده ضلال بعقله، أو إنسان عنده انحراف بشهوته:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه الآية: 123]

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه.

انظر إلى هذا التكامل بين الدرس السابق والدرس اليوم :

أيها الأخوة، الدرس السابق والدرس الحالي متكاملان ، الدرس السابق من هو الله؟ هو الخالق ، هو الباري، هو المصور، أسماؤه حسنى:

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

[سورة الإسراء الآية: 110]

الدرس السابق: من هو الله؟ الدرس الحالي : ما واجبنا تجاه هذا الإله العظيم؟ أن نعبده وحده، الدرس الماضي الحمد لله رب العالمين، الدرس الحالي لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، هذه كلمة التوحيد، هذه كلمة الإسلام الأولى، أن تفرده بالعبودية، أن تعبده وحده، وأن تأخذ م راده منك من خلال رسوله، لا إله إلا الله محمد رسول الله، أول كلمة العبودية لله وحده ، ما قال الإله هو الله، هناك نفي ، لا معبود بحق إلا الله، الكلمة الثانية مراد الله منك، تعرفه من خلال رسول الله.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علماً، وهذه الدروس من أدق دروس الإسلام، دروس العقيدة، إن صحت عقيدتنا صحت عملنا، وإن فسدت فسدت عملنا ، وأعيد وأكرر : العقيدة هي الميزان، ومفردات الدين هي الوزن، فالخطأ في الميزان لا يصحح ، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر، أخطر شيء أن يكون



خطوك بالميزان، هذه العقيدة.

أكثر المقصرين لا يرى أن الله وحده يتصرف، يرى شركاء الله عز وجل، لذلك يخاف من زيد وعبيد، يتمزق، لو أنه وحد لانتهدت كل مشكلاته، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، فنحن حينما نقول : لا إله إلا الله ، يعني لا معبود بحق إلا الله، أنت عرفت الله ، من مقتضيات هذه المعرفة أن تعبد . إنسان يكاد يموت من العطش ، علم أن في هذا المكان نبع ماء، هل يتم واقفاً؟ مستحيل ، عندك معرفة، ومقتضى هذه المعرفة أن تتحرك نحو الحقيقة. درس اليوم: مقتضى هذه المعرفة؛ أن أنتقل وأشرب من هذا الماء فأرتوي، درس اليوم العبادة، الدرس الماضي كان معرفة رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين